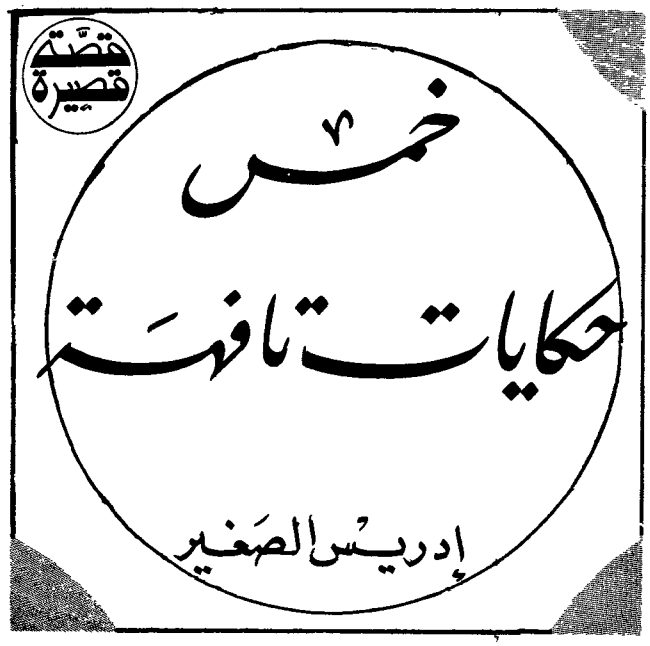

قلت :

ـالسلام عليكم .

ولما لم يرد التحية كما علمنا الآباء في المنازل . والمعلمون في المدارس . قلت لعل الرجل أصم ، أو أن آخرين قبلي حيوه فرد فاستنفد كل التحايا والردود . فجف ريقه والتصق لسانه باللثه ، فلم يبق له سوى عينين محمرتين مجهدتين، وساعة يد ذهبية، وربطة عنق حريرية. لم أر البساط المفروش في المكتب، لكنني ما أن علوته بقدمي حتى ادركت أنه من نوع جيد ثمين. هكذا أنا، ادرك كنه الأشياء بملامستها، حتى دون أن انظر اليها. خصوصا البسط. البسط ورنين النقود. أنا هكذا. اكون سائرا إلى عملي، فتسقط قطعة نقد معدنية من ثقب سروالي، وما أن ترتطم باسفلت الشارع ويبلغ الرنين أذني حتى اقدر قيمتها دون ان اخطيء. أنا هكذا. مثلا ربطة العنق الحريرية هذه. أو لنترك ربطة العنق. لنأخذ مثلا المعطف، أو القميص أحسن. قميص الرجل هذا ليس من صنع وطني هذا قميص مستورد. استطيع أن اقول هذا دون أن اخطيء وأنا مغمض العينين. المسألة بسيطة جداً. مسألة خبرة. أو لنقل خبرة من نوع خاص. او لنأخذ مثلا القلم. القلم الذي بين أنامل الرجل . . .

ـنعم ؟

وانتفج الودجان . واحمر الوجه ، وتناثرت حبيبات اللعاب ، وخبطت اليدان المكتب بعنف ، فتساقطت الاقلام وانكمشت الاوراق ، فانكمشت وجف ريقي والتصق لساني باللثة ، فلم يبق لي سوى فضاء واسع وقبض ريح .

ـأنا . . يا سيدي . . أنا . .

ـانت . انت ماذا ؟ ألا تحسن القراءة ؟

ـبلى . واحسن الكتابة كذلك .

ـاذن كان عليك أن تقرأ البطاقة الملصقة بالباب ، قبل أن تداهم المكتب كالوحش باقدامك النتنة . . المفلطحة . اخرج .

ازداد انكماشي ، وانسحب البساط من تحت قدمي حين اصبحت خارج المكتب كان الباب الخشبي الضخم مغلقا بإحكام تهجيت الكلمات المخطوطة على البطاقة :

مدير الشؤون الادارية

ممنوع الدخول

أنا هكذا . لا أفهم الادارة بتاتا . مضيت اتمشى في الممر الطويل ، حيث اصطفت ابواب المكاتب ، مطرقا برأسي إلى الارض . امعنت النظر في رجلي . لم تكونا مفلطحتين . قلت: كيف يمكن الدخول إلى هذا المكتب إذا كان الدخول ممنوعا ؟ فتحت الملف الذي اتأبطه لاتأكد من وجود كل المستندات . مضيت اتفحصها واحداً واحداً . أنا هكذا . افحص الاوراق الادارية عشرات المرات قبل أن ألج اي مصلحة حكومية .كان«الشاوش» يطلب من الناس أن يصطفوا واحداً واحداً أمام باب أحد المكاتب . عرفته من طربوشه الاحمر ولغته . صدقوني ، فالشواش يمتلكون لغة خاصة . أنا هكذا . ما أن يحدثني احدهم حتى اعرف أنه الشاوش ، حتى وإن لم يرتد البذلة الرسمية . اقتربت من الباب كان الشاوش قد نظم الناس واحدا وراء واحد ، فأوقف اولهم بمحاذاة رتاج الباب الايمن . واقتعد هو كرسيا عند رتاج الباب الايسر . قرأت البطاقة الملصقة بالباب :

الكتابة

بحثت عن :

ممنوع الدخول

لكنني لم أجد شيئا . قلت في نفسي مخاطبا نفسي : «ابحث يا هذا جيدا فقد تغفل عن الانتباه إلى شيء ما ، فتكون النتيجة وبالا عليك . وهكذا يجدونها فرصة لاسماعك ما لا تود سماعه . هيه ! قال الخبيث عن رجلي بأنهما مفلطحتان ، بل ونتنتان ، وشبهني بالوحش . هذا الدب الابيض ذو الوجنتين المحمرتين» ملت منحنيا لأهمس في اذن الشاوش . اعتدل في جلسته على الكرسي وقرب اذنه الكبيرة من فمي وقد قطب جبينه وتحولت سحنته إلى علامة استفهام كبيرة .

ـأ . . ؟ ماذا تقول ؟ . . أ . . ؟

ـاريد أن اقابل السيد مدير الشؤون الادارية . . .

ـايوا ؟!

ـلكن الدخول إلى مكتبة ممنوع . فكيف ادخل ؟

وكأنما اصاب الرجل مس من الجنون . تأفف ولوح بيديه في الهواء وخبط جبهته براحته ، وفتح فمه ليتكلم ثم أمسك عن الكلام ومضى يبحث في جيبي معطفه عن شيء ما ، لكنه لم يجد شيئا .

ـهل معك سيجارة ؟

ناولته علبة السجائر فاستل منها سيجارة ، ثم اعاد لي العلبة فأشرت له

بيدي أن احتفظ بها

ـاسمع يا ولدي . هل يمكنك أن تبلغ الطابق العاشر من عمارة دون أن تصعد الدرج ؟

كدت أن اجزم بأن الرجل قد جن لامحالة . لكنني استنتجت انهم في هذه المصلحة لا يتحدثون إلا بالألغاز فقلت . لألعب معهم هذه اللعبة .

ـايوا . أجب .

ـاستطيع أن اصعد في المصعد .

ـالمهم . هل تستطيع أن تصعد دون استعمال وسيلة ما ؟

بدأت اتضايق . فلأعطه الاجابة التي يبحث عنها .

ـمعك حق . لا يمكن أن اصعد دون وسيلة .

ـهاه

وضحك الخبيث ضحكة الانتصار ، ثم اشار بأصبعه إلى الكتابة أولا . ثم مكتب المدير ، ففهمت ووقفت في ذيل الطابور .

وأنا الذي يدعي التمرس بالنظام الاداري ؟ كيف تغرب عن ذهني هذه الحقائق . هذه الْبَدَهِيَّات . لو فتح المديرون الكبار ابوابهم للعموم لما استطاعوا انجاز مهماتهم الضخمة . سنشغلهم طول النهار بمشاكلنا الكثيرة . المشاكل . . نحن نسمي اي شيء مشكلة . لذلك احدثوا الكتابة . تدخل إلى الكتابة اولا . تعرض عليهم مشكلتك . يعاينونها ثم يسمحون لك بالدخول عند المدير الكبير ، ويصرفون عنه اصحاب المشاكل الصغرى . وأقولها صراحة . اصحاب التوافه . هؤلاء يصرفون الى مكاتب اخرى . أن تتوقف حوالتك الشهرية سنة كاملة دون مبرر، ليست مشكلة كبيرة كما قد تظن . بل ليست مشكلة البتة . هذا خطأ اداري وسيصلح حتما . وهل هناك من هو معصوم من الخطأ سوى الله سبحانه وتعالى ؟ أن يظلمك رئيسك المباشر هذه مسأله تافهة . لماذا تصر على أن تشغل بها ذهن المدير الكبير ؟ المدير الكبير للمشاكل الكبيرة . هذا هو المنطق الذي نتعامى عن فهمه. أن تعينك الادارة للعمل في مدينة وجده وتعين زوجتك في مدينة مراكش قضية تافهة . مصلحة الادارة يا أخي هي التي دعت إلى ذلك . يجب أن نتعلم كيف نقدم المصلحة العامة على المصالح الشخصية . توافه توافه ، استطيع أن اجزم دون أن اخطيء أن كل هؤلاء المصطفين في هذا الطابور، حضروا إلى هنا بسبب مثل هذه التوافه ، وقد قطع اغلبهم مئات الكيلو مترات وتغدوا بمعلبات السردين وتجمهروا أمام باب الادارة ساعات في انتظار وقت الاستقبالات . انا مثلا . أنا حضرت إلى هنا بسبب مشكلة تافهة . لكنها رؤوسنا الصلدة التي لا تفهم شيئا . حتى المكاتب نداهمها كالوحوش بأقدامنا المفلطحة .

* * *

الحكاية الاولى :

نعم ؟! تسأل لماذا لم تتوصل بحوالتك الشهرية ؟ المسألة بسيطة يا سيدي . ضاعت بعض الوثائق من ملفك الاداري ، لذلك لا نستطيع أن نصرف لك حوالتك إلا بعد أن تأتينا بوثائق جديدة بدل الوثائق الضائعة .

نعم ؟ تسأل لماذا وكيف ضاعت ؟ ضاعت يا أخي ، ضاعت . ألا يضيع الناس اشياء ثمينة . انت مثلا . ألم تضيع في يوم ما بطاقة تعريفك أو جواز سفرك أو أي شيء له قيمة ؟

الحكاية الثانية :

نعم ؟ ارسلت لنا الوثائق المطلوبة منذ ثلاثة اشهر ؟ لا لا يا سيدي ، ما زلنا لم نتوصل بأي شيء . ولماذا أنت عجل بهذا الشكل؟هل تتصورون أن للوثائق اجنحة تطير بها إلى حيث تريدون ؟ اسمع يا سيدي ، هنالك سلم اداري . اتفهم ؟ وثائقك ستصلنا حتما . اذهب واسترح.اتركونا يا ناس نعمل في صفاء ذهن . كل واحد منكم يريد أن ننجز له ما يريد في لمح البصر . هل نحن سحرة أو مردة ؟ ثم هل تظن أنه لا شغل لنا نحن هنا سوى وثائقك ؟

الحكاية الثالثة :

وصلت وثائقك يا سيدي . ألم أقل لك بأنها ستصل حتما ؟ هل تثق الآن في السلم الاداري ؟ ها هي ذي وثائقك بين يدي . انظر جيدا . اليست هي نفسها التي ارسلت ؟ لم يبق سوى توقيع الكاتب العام وتتسلم حوالتك ، بل حوالاتك « العفريت» سيتم هذا بعد أن تبدل هذه الوثيقة . وثيقة واحدة فقط . انظر يا سيدي . أليس من العار أن ترسل لنا وثيقة وهي في هذه الحالة المزرية ؟ انتم لا تبالون بشيء . تفرشون الوثائق وتجلسون عليها في ابواب الادارات أو الحدائق العمومية . تكزون عليها بأيديكم الوسخة المبتلة بالعرق . تدوسونها بأقدامكم وانتم تتزاحمون بفوضى لولوج المكاتب. . . هل تظنون أن الوثائق مصنوعة من الحديد؟

انها من ورق . والورق معرض للتمزق و . . و . . و . . ثم انها مكتوبة بالمدد وليست منقوشة بالازميل أو لست ادري ماذا . المداد يمحى . إنها ايديكم . ماذا تقول ؟! انت محتاط وتصون الوثائق الادارية في ملف ؟ اسمع . لست مستعدا لأن اضيع معك وقتي في كلام فارغ . هذه وثيقة لم تعد صالحة ، فأحضر غيرها وارحنا . ثم لنفرض تجاوزا أنك ارسلتها لنا وهي في حالة جيدة . لكن انظر جيدا كيف اصبحت الآن . أليس من المحتمل أن تكون قد سقطت من الشاوش وهو ينقلها من مكتب لآخر ؟ انتم لا تتصورون كيف تصبح ارضية الادارة في فصل الامطار بسبب اقدامكم الموحلة . المفلطحة . ماذا تريدنا أن نفعل؟إنه قضاء وقدر . الا تؤمن انت بالقضاء والقدر ، خيره وشره ؟ اليس من المحتمل أن تندلق صبغة اظافر الكاتبة على الوثائق أو القهوة أو الشاي أو أي مشروب آخر ؟ إنه قضاء وقدر يا أخي . قضاء وقدر .

الحكاية الرابعة :

آه . الآن انتظمت الاشياء . ملفك الآن كامل . لم يبق سوى توقيع الكاتب العام . ؟!ماذا ينتظر لكي يوقعه؟وقاحة والله . دائما تقدمون سوء الظن . إنه مسافر . مسافر يا أخي . ماذا تقول ؟ لماذا يسافر في اوقات العمل ؟ وهل تظن انه مسافر للنزهة ؟ لقد سافر يا سيدي في مهمة رسمية . أتفهم ؟ مهمة رسمية في الخارج . ذهب لينجز

اشياء في صالحي أنا وانت والآخرين . انتم لا تهتمون إلا بأنفسكم . ماذا تقول ؟ اقترض يا أخي . وسترد ما عليك من دين . الاقتراض ليس عيبا . إنه اقتراض وليس تسولا . ألا تقترض الدول من بعضها ؟ اين انت من الدول ؟ ماذا ؟ لم يعد أحد يريد اقراضك ؟ ابحث يا أخي . ابحث . هل انقطعت الرحمة من ارض الاله ؟ ثم واسمح لي أن اصارحك . انت رجل مبذر . نعم مبذر . وتنفق كل ما تقترضه في التنقل بين مدينتك والادارة المركزية . لماذا لا توفر على نفسك المال والجهد ، وتتعامل معنا بالسلم الاداري ؟ نعم ؟ سنة ؟ بالله عليك ماذا تساوي سنة في عمر الزمن . اغمض عينيك وافتحهما تجد أن عشر سنوات قد مرت وانت غافل .

الحكاية الخامسة :

آسفون يا سيدي . آسفون جدا . ملفك ما زال لم يوقع بعد . تسأل عن الكاتب العام؟ البقية في حياتك يا سيدي . مات يا سيدي . مات . غريب؟! وهل تريد أن نبعثه من القبر ليوقع ملفك؟ نعم؟ طبعا هنالك من ينوب عنه . هل تظن اننا نعمل في فوضى؟ لا لا يا سيدي ، لا يمكن أن ينوب عنه آخر في مسألة التوقيع . لا . ماذا تقول؟ حسنا! أو تعلمنا؟ طبعا سيعوضونه . لكن ليس بالسرعة التي تظنها . هل تظن أن تعويض كاتب عام كتعويض جورب أو زر قميص؟ تعقل يا رجل . هذا منصب هام ، يجب على الادارة أن تتريث حتى تجد الرجل المناسب . كل هذا في مصلحتكم . فلم العجلة؟ ثم لا تعتقد أن الكاتب العام الجديد سيعين فقط ليوقع ملفك انت وحدك . هنالك آلاف الملفات كلها تنتظر البحث والدرس والتوقيع . هل تعتقد أن للكاتب العام عشر ايادٍ؟ نعم؟ ماذا تقول؟ حكمت عليك المحكمة بافراغ المنزل الذي تسكنه؟ تنازل لك المالك عن واجب الكراء لسنة خلت مقابل الافراغ؟ إنه رجل كريم والله . هذه فرصة العمر بالنسبة لك . وانت الذي تقول بأنك غير محظوظ؟ احمد الله يا رجل لأن المحكمة لم تحكم بالحجز على متاعك . ماذا؟ بعت كل المتاع فلم يبق لك سوى حصير؟ ولماذا تصر على البقاء في منزل ليس فيه سوى حصير؟ هل تهوى ملاعبة اطفالك الكرة في الغرف الفارغة؟ الشارع؟! انت انسان مقطوع من شجرة؟ قل لي بالله يا سيدي . ألم تقرأ عن عظماء التاريخ الذين كانوا يبيتون في الشارع؟ عند الطوار او قرب صناديق القمامة او في المراكب المهترئة الملقى بها في الشواطىء المهجورة . لا لا يا سيدي . لا تخف على مصير الأولاد . كن مطمئنا . ألا تعلم بأن الكثيرين من عظماء التاريخ لم يتابعوا دراستهم في المدارس النظامية؟ إن الحياة يا سيدي اعظم مدرسة واعظم جامعة . ثم إن الله ما خلق نفسا إلا وخلق لها رزقها . هل سمعت عن أحد مات جوعا؟ماذا تقول؟اعوذ بالله من قولك هذا . الله . يهب الأرزاق وبعض عباده يسرقها من البعض الأخر؟ !اسمع يا سيدي . لقد بدأت تقول كلاماً خطيرا . هذه سياسة . هذا كفر . نحن هنا في ادارة . اسمع . انصرف حالا وإلا . . . الظاهر أنك لن تبيت في الشارع حيث طقس بلادنا معتدل والحمد لله لا هو حار ولا هو قار . بل ستبيت في الثلاجة . ماذا؟ ستقدم شكاية للمدير الكبير؟ وماذا تنتظر؟ اخرج حالا . هل ادلك على مكتبه؟ هاهاها .

* * *

الشاوش كرسيه عند رتاج الباب الايسر . كان يدخن ويضحك لي بمكر . اخرجت علبة سجائر من جيبي . احسست برغبة كبيرة في التدخين . هكذا أنا . كلما زرت ادارة حشوت جيوبي بعلبتي سجائر واكثر . كنت قد اصبحت أول واقف في الطابور . قال ادخل ، فدخلت . وقفت في مواجهتها . شعر اشقر وعينان واسعتان . قلت . هذه اذن هي درج المدير أو مصعده . «عزيزي القاريء الكريم أرجو ألا تؤول فهم هذه الجملة . فأنا اقصد ـ والله العظيم ـ الدرج الاسمنتي والمصعد الكهربائي ولا شيء غير هذا» كان التعب باديا على تقاسيم وجهها . قالت :

ـ هل تعرف قراءة الساعة؟

قلت . عدنا إلى الالغاز . وقفت كالمسطول . اشارت إلى ساعة معلقة على الحائط ووجهها يتقاطر تعبا . نظرت ببلاهة الى العقربين والارقام . كانت الآن قد بدأت تسوي شعرها وتهيء حقيبة يدها . قلت . لعل نصف الساعة المتبقي على انتهاء وقت العمل غير كاف لاستعراض مشكلتي . وقفت وهي ما تزال تسوي شعرها . قالت :

ـ انت تفهم . أزمة المواصلات و . . .

ففهمت . واللبيب بالاشارة يفهم .

القنيطرة ـ المغرب

مؤلفات حنا مينه

- المصابيح الزرق
- الشراع والعاصفة
- الثلج يأتي من النافذة
- الشمس في يوم غائم
- الياطر
- بقايا صور
- ناظم حكمت : السجن ، المرأة ، الحياة
- المستنقع
- الابنوسة البيضاء
- ادب الحرب (بالاشتراك مع د. نجاح العطار)

دار الآداب